

أصلة الكلام وتهافت الفلسفة

(الفلسفة الإلحادية الغربية أنفع للإسلام في الفلسفة القديمة)

الشيخ إبراهيم الأنصاري

المحة يقدم الشيخ إبراهيم الأنصاري في هذا الحوار نظرة متميزة لواقع الفلسفة والكلام، ويعرض لبعض الأطروحات التي قد تصدم القارئ، لأنها تخرج عن الإطار المتعارف عليه في مجتمعنا، فهو يعتبر أن الفلسفة الإسلامية قد انتهت والمستقبل سيكون كلامياً بامتياز:

• ما الذي تعنيه بعلم الكلام؟ وما الفرق بينه وبين ما يعرف به بوصفه علم الدفاع عن العقيدة؟

■ الفرق بين الكلام والعقيدة واضح، فالعقيدة عبارة عن نفس ما يوجد في باطن الإنسان، ويطلب منه الجهة العملية، العمل القلبي طبعاً، يطلب منه الإيمان. أما علم الكلام، فيطلب منه الجهة العلمية، ربما كان الشخص يبحث عن علم الكلام بحثاً واسعاً ويكون عارفاً بالأراء والأدلة وكل شيء، ولكنه بنفس الوقت لا يعتقد. ربما يأتي مسيحي ويكون متخصصاً في علم الكلام الإسلامي، ولا يلزم العقيدة. من هنا فعلم الكلام لا يلازم العقيدة، فالكثير من المسلمين معتقدون ولكنهم غير متكلمين.

• ما دمنا نتحدث عن علم الكلام، حبذا لو أعطيتنا نبذة عن ظروف نشأته؟

■ برأيي إن علم الكلام من صميم الدين الإسلامي، فهو قد نشأ من القرآن والأحاديث النبوية الشريفة؛ باعتبار أن القرآن يذكر الآراء المخالفة ويحتاج عليها، ففي مقابل كل رأي باطل هنالك رد واستدلال، فالقرآن الكريم يذكر الدليل على الرأي

المخالف، وأحياناً ينقل المسائل الكلامية عن الأنبياء السابقين، مثال على ذلك قول النبي عليه السلام لقومه: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ❖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» الصافات/٩٥-٩٦. فالكلام من لوازم الدين منذ بدايته، وهو صفة ملزمة لجميع الأديان، فكلما كان الدين موجوداً، فعلم الكلام موجود، لكن يجب التتبّع إلى الفرق بين علم الكلام بما هو علم، وعلم الكلام المتمثل بالكتاب المدون أو الآراء، ولكن يبقى علم الكلام بروحه عبارة عن المسائل الدينية مع الاستدلال. هذا المعنى موجود في القرآن، وكان موجوداً في التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم، من هنا نفهم السبب الذي نقل من أجله القرآن المسائل الاعتقادية عن النبي إبراهيم والاستدلال عليها، فهذا الأمر يثبت انتشار الكلام دون أن نأخذ اعتباراً لوعنه وضيقه.

• **يبدو لنا ما تفضلتم به كما لو أنه يناقض بعض الشيء آراء الباحثين، الذين اعتبروا أن الكلام نشأ ضمن ظروف فرضتها عوامل الاجتماع السياسي؟**

■ بعد السياسي للآراء التي دخلت على المسائل الأساسية نتجت عن أن كل طرف في مواجهة خصمه، أراد أن يدعم آرائه في المواقف التي اتخاذها؛ ولذلك عمل المتكلمون على التكلف، ونحت المصطلحات لتأييد المذهب الحق، وإلا فالأصل في علم الكلام هو الكلام الحق، يعني الحقيقة الحقة، من هنا نفهم أن بعض المسائل جاءت مواجهة المسائل الباطلة.

وعلى هذه الأرضية نستطيع أن نفهم أيضاً موضوع تفرع الأدلة وكثرتها، حيث نجد الخوارج وأدلةهم، والمعتزلة وأدلةهم، والأشاعرة وأدلةهم، فغاية الكلام الدفاع عن الآراء الحقة عبر الأدلة.

من هنا نستطيع القول أن أصل علم الكلام هو إثبات الآراء الحقة، وهذا الشق بعيد عن السياسة، وهو قبل السياسة، أما بعد السياسي فهو ناتج ونتيجة الآراء الباطلة.

• **على السياق نفسه نرى أنكم تتحدثون عن مبانٍ كلامية فما هي هذه المبانى؟**

■ أولاً: الأساس في علم الكلام العقل غير الملزوم المبحوث عنه في بعض العلوم، يعني إذا سألنا مثلاً: ما هو الفرق بين الكلام والفلسفة مع أنهما يعتمدان على العقل؟

فالمتكلمون عند الشيعة والمعتزلة يركّزون على العقل مثل الفلسفه وأزود من ذلك، وبالتالي، التهمة التي توجه إلى الكلام بأن أدلته غير عقلية، هي مجرد تهمة. نعم، هذه حقيقة مسلم بها، فالمتكلم أدلته عقلية إلا الحشويين والأخباريين.

ثانياً: إذا أثبتنا أن العقل أساس الكلام عند الشيعة والمعتزلة نستطيع الآن أن ننتقل إلى الحديث عن الفرق بينهما؛ إذ أن العقل الكلامي لا يتقيّد بالمسلمات العقلية القديمة؛ أي أن كل ما يفهمه المتكلم من «الكبيرة» إلى «الصغرى» والمقدمات والأدلّة، يعرضه على عقله، فإذا رأه صحيحاً قبله، وإذا رأه سقيناً رده. وأما الفلسفه فهي تعتمد على آراء، و المسلمات وصلت من القدماء، وتعتبر من الضروريات، فبنوا عليها بقية المسائل، وردوا ما خالفها؛ لذلك ترى فلسفه الإسلام، - تقريباً - يخالفون بعض المسلمات الاعتقادية، فهم ردوا أموراً كثيرة كونها تتفافي أقوال الفلسفه، وهم أثبتوا أموراً مثل الأفلاك التي تشبه قشرة البصل، وبنوا عليها الكثير من الآراء مع العلم أن فكرة الأفلاك هذه موروثة من أفلاطون وأرسطو. ولا بد من إجراء مراجعة لها، لكن الفلسفه المسلمين تقبلوها على شكل مسلمات، وبنوا عليها مسلمات وأموراً كثيرة، وسار عليها المتقدمون منهم والمؤخرون، يتمثل ذلك بكتاب «المنظومة» للعلامة السبزواري. وهذا الأمر يظهر أيضاً في الأسفار للملا صدرا... فكل الفلسفه بنيت على هذه الآراء المبنية على الأفلاك، وهي من الضروريات بالنسبة لهم.

وهذا الأمر أوقع الفلسفه بأزمة كما نلاحظ في هذا العصر، وفي العصور الأخيرة؛ لأنه عندما جاء الغربيون ككوبيرنيك مثلاً، وأبطلوا هذه الأمور، أصبحت موضوعات مسلمة لديهم كالأفلاك غير صحيحة بداعه، الأمر الذي دفع العلامة الطباطبائي إلى القول: إن الكلام عن الهيئة القديمة شطط.

إذاً هذا هو الفرق الجوهرى، فالمتكلم لا يستند إلى أفكار قديمة، بل إلى عقله، ويسير طبقاً لمنهج العقل.

• سماحة الشيخ تنظرون إلى الفلسفه وكأنها خارج مجال العقل، فكيف بالإمكان تفسير تأثير الفلسفه على الكلام؟

■ في البداية وقف المتكلمون المسلمين في مواجهة الفلسفه، لذا نرى ردوداً كلامية كثيرة عليهم ، فابن النوخخت كتب للرد على الفلسفه، ويوجد لهشام بن الحكم ردود على مسألة قدم العالم. فقد كان المتكلمون إلى زمن المحقق الطوسي يقفون في مواجهة الفلسفه، ويردّون عليهم. أما من زمانه وفيما بعد، تمّ خلط الفلسفه بالكلام، ولكن هذا الخلط كان من المحقق؛ ونتيجه الاستفادة من المسائل الفلسفية في المسائل الكلامية؛ بمعنى أنهم لم يكونوا مقلدين للفلسفه؛ ولعل هذا ما دفع المحقق الطوسي إلى ردّ مسألة العقول العشرة في كتاب تجريد الاعتقاد. وفي مسألة قدم العالم وقف موقفاً معارضأً، وأثبت حدوثه. إذاً المحقق كان متكلماً، وحاول أن يطور المبني الكلامية عبر استخدام الفلسفه، طبعاً هو في شرح الاشارات لم تظهر عليه هذه المعالم؛ لأنه أراد أن يواجه الرازي الذي كتب شرح الإشارات، ورد معظم آراء ابن سينا، وبالتالي هو ينتقد مسالكية الرازي؛ ولذلك سمى كتابه: «جرح الإشارات»، ولكن النقطة المهمة أن رؤية الطوسي الكلامية لا تظهر بوجه حقيقي إلا في كتاب: «تجريد الاعتقاد»، الذي يعتبر آخر كتب المحقق. وكذلك نلاحظ هذا الأمر في بقية كتبه التي تظهر فيها الأفكار بصورة فلسفية، ولكن الآراء آراء كلامية؛ ولهذا يقال أول من طرح المسائل الكلامية بلحن فلسطي هو الطوسي، ثم تبعه الإيجي، والجرجاني.

• تُظہرون من خلال كلامكم أن الكلام يمتلك الأصلية، وبالتالي فهذا الأمر يفترض وحدة القول فيه؛ ولكن إذا نظرنا إلى تقسيمات الشيخ المفيد والسيد المرتضى فإننا سوف نراها تختلف عن التقسيمات الخمسة لأصول الدين والتي ظهرت في فترة لاحقة؟

■ هذا غير صحيح، أنا كتبت في الأصول الخمسة، ونقلت عن الشيخ المفيد في كتاب: «المغني» إن أصول الدين خمسة، ولكن نعم، هناك اشتباكات من بعض الذين يتعاطون علم الكلام؛ وهؤلاء في الحقيقة ليسوا من أهل الكلام؛ فالشيخ المفيد بحث موضوع التوحيد والصفات، وهو يدخل العدل ببحث التوحيد، وهم يكتفون بهذا القدر من القراءة، مع العلم أنه يصرّح في داخله: إن مبحث التوحيد مستقل يوجب إنكاره الكفر، وان معنى كونه أصلاً من أصول الدين هو هذا. الأصول في الدين كمنزلة

الأركان في الصلاة. نحن نقول: إنَّ أحداً إذا ترك سورة الحمد سهواً لا تبطل صلاته، وأما إذا ترك الركوع عمداً، أو سهواً، أو نسياناً تبطل صلاته، فهذا هو الركن، فالركن هو الذي يُبطل المركبُ بتركه سواء أكان عمداً، أو سهواً، وأصول الدين كذلك، ما يخرج الإنسان من الدين لفقدانه سواء أكان قاصراً أو مقصراً، فإذا كان قاصراً قد يرحمه الله ولكن إذا كان مقصراً هل يرحمه الله؟

فالشيخ المفید يصرّح حين يدخل العدل في التوحيد، بأن العدل كالتوحيد مستقل، ويکفر الذي ينکره، وهنا جرى اللگط حين قام غيرُ المختصين ببحث هذه المسألة، فذکروا أن الشیخ المفید يذكر أربعة أصول، ولم ینتبهوا إلى ما ذکره في أن العدل أصلٌ وبالتالي يكون لدينا أن الشیخ المفید أكد أن أصول الدين خمسة، وهذا الأمر ینطبق على السيد المرتضى الذي صرّح في عدة كتب بأن أصول الدين خمسة، وكذلك بقية العلماء من المتأخرین، أما بالنسبة للمتقدّمين نعم، هناك فروقات.

• هل بالإمكان تحقيب مراحل الكلام وبيان الفروقات في ما بينها؟

■ يمكن أن نقسم علم الكلام إلى مرحلتين: مرحلة كان فيها الكلام حاكماً على الفكر والأصول. إذ حين ننظر إلى الكتب الصوفية نرى فيها اللحن الكلامي موجوداً، وهذا العصر امتدَّ إلى مئتي عام حتى الآن، ولكن مع بداية انفصال التشیع عن التسنن، وقيام دول خاصة بكلتا الطرفین، خفتُ الاحتیاج إلى علم الكلام، وأصبح الفقهاء یعرفون قدرًا قليلاً منه؛ وهذا سبب صدور أخطاء، ومن هذه الأخطاء ما ذكرت، فذهب البعض إلى القول أن أصول الدين ثلاثة، وأصول المذهب اثنا: التوحيد، والمعاد، والنبوة، أصول الدين والعدل والإمامية أصول المذهب. وهذا التقسيم لا تجده عند القدماء من المتكلمين؛ لأن المتكلم لا يتطرق إلى هذا الكلام على اعتبار أن المذهب هو الدين، فعندما نقول مذهب الشیعیة نقول الدين عند الجعفریة، لا أن الدين شيء والمذهب شيء، وكل منهما یهتم بقضاياها الخاصة، وهذا ما لا تجده في کلام الطوسي والمفید و... فالمتأخرین لم یكونوا متكلمين كالسابقین فأحدثوا هذا التقسيم. فالواقع هو الذي فرض هذه الأمور التي تعتبر شاذةً، ولا تمت بصلة إلى الكلام.

• تحدثتم حتى الآن كثيراً عن الكلام، ولكنكم لم تتوقفوا عند نصير الدين الطوسي

بشكل محدد؟

■ نصير الدين الطوسي نصر الشيعة على صعيدين: فمن جهة قام بمواجهة الرازى عبر ردوده وكتبه التي غيرت شكل علم الكلام عبر صيغها ب قالب فلسفى، - وهذا الموقف قد لا يؤيّدني به البعض الذي يرى أن الطوسي لم يقدم خدمة للكلام عبر ما قام به ولكنني أقول لهم لا -، أما خدمته العلمية فتمثل بقبوله الوزارة من «هولاكو». وحتى نستطيع أن نصحح بعض المعلومات الخاطئة سنعرض لبعض مراحل حياته، فنصير الدين الطوسي كان مسجوناً في قلعة الإسماعيلية لمدة عشرين سنة، واستفادوا من علمه، فهو كتب هناك: «أوصاف الأشراف» للداعي الإسماعيلي. وفي هذه الفترة نرى الطوسي يكتب في بعض الأمور التي تتوافق مع الإسلام، وهو عندما تحرر من سجنه كتب أن ما ورد على لسانه كان بسبب السجن. وهو لم يخرج من القلعة طوعاً، إنما حرره «هولاكو» الذي أراد أن يبني مرصدًا في مراغة، فاستقدم الفلسفه وعلماء الهيئة، ولكنه فشل في ذلك، فأشير إليه باستحضار الطوسي، فشن حرباً ٩٠٪ منها من أجل تحريره، وهو في سبيل ذلك أمر قائده جيشه بالمحافظة على حياته، وهدد بالقتل إذا تعرض الطوسي للأذى، وعندما حرر احتفظ به في حاشيته بالقهر، وهو ونتيجة هذا الواقع استفاد من سجنه لصالح التشيع.

قصير الدين الطوسي كان رجلاً مهماً، استفاد من موقعه لإرشاد «هولاكو» حيث اعتمد على علم الهيئة من أجل تدليله على الخير والشر، وهو جلب قلوبهم بعلمه، ومن خلال هذا الأمر نجح في إنقاذ مكتبات الشيعة في بغداد، وحافظ على أرواح العلماء والموالين.

• بمناسبة الكلام على الطوسي كيف ترون منهجه الكلامي؟

■ على الصعيد الكلامي، تظهر ملامح تأثيره من خلال المزج بين القضايا الفلسفية والكلامية، ففي مسائل إثبات الصانع والتوحيد الغالب فيها المسائل الفلسفية؛ وهذا بما يقارب الـ ٨٠٪. أما في مسائل العدل والإمامية ٩٠٪ منها كلامية على اعتبار أن هذين الموضوعين لا علاقة لهما بالفلسفه.

• هل هذا المنهج المزجي كان له تأثير على المدارس الفكرية؟

■ بعد الطوسي تغير علم الكلام بشكل كلي، حتى الكلام السنّي، أخذ ينحو بنفس المنحى الذي سار عليه، فكتاب المواقف تأثر به، وكذلك المقاصد، وكل من أتى بعده تأثر به. فالكلام تغير بعد الطوسي تغيراً تاماً وأصبح له وجهة فلسفية.

وهو نجح بهذا الأمر بشكل غير مسبوق، فإذا نظرنا إلى الرazi نرى شخصية تعاملت مع مسائل كلامية، ولكنها لم تستطع أن تحول في المبني الكلامي، إنما الرazi فصل آراء الفلسفه، وردّ ما يخالف رأي أبي الحسن الأشعري، وهكذا فعل الغزالى، فهما اعتبرا أنفسهما في مورد الرد على العدو، ولكن الطوسي أول من نجح بهذا الموضوع.

• طالما أننا نتكلّم عن تحول فلسفى للكلام البعض يعتبر أن الحكمة المتعالية للملا صدرا طريقة كلامية ما رأيكم بهذا؟

■ أنا أقبل هذا الكلام ١٠٪ تقريباً، نعم، صدر الدين الشيرازي متاثر بنصيير الدين الطوسي كثيراً، ويعتقد به كثيراً وربما يراه أدق من ابن سينا؛ ولذلك يقول له المحقق بسبب فهمه الكامل للفلسفة، وهذه اشادة لا تصدر كثيراً عن صدر المتألهين؛ لأنّه يعتبر أنّ من فهم الفلسفه هم قلائل.

ولكن هناك اختلاف كبير في المنهج والهدف، عندما نتحدث عن تأثير مباشر بالإمكان الحديث عن تأثيره بالميرداماد، وإن كان هناك بينهما بعض نقاط الخلاف، مع ذلك الميرداماد ينكر قدم العالم، ولديه كتب يثبت فيها حدوث العالم، وهو اخترع لنفسه مصطلحات مثل السرمدي... وهذه النقطة تجعله متكلماً. ولكن الأمور مع صدر الدين مختلفة فهو يتبنّى وجهة نظر الفلسفه، ويعتقد بالقدم الذي تحدث عنه الفلسفه، القدم الواقعي، والقدم الزمانى.

• هذا الكلام يؤكّد أن صدر الدين فيلسوف؟

■ يعتبر صدر الدين الشيرازي فيلسوفاً حقيقة، وإن ظهرت لديه بعض الآراء الكلامية، ولكنها لا تلغي كونه فيلسوفاً، ف٩٠٪ مما تكلّم فيه ليس له علاقة بالكلام، هو متبعٌ بالفلسفه.

• إذا كان الواقع كذلك كيف تفسرون إذاً ظاهرة الالتفاف حول صدر الدين الشيرازي

بهذا الشكل؟

■ لم يتعلّق أحد بصدر الدين الشيرازي، فالشيعة منذ القدم ينقسمون إلى قسمين: أحدهما مع الكلام، والآخر مع الفلسفة؛ لذلك ترى منذ عام ١٥٤هـ انقسام المجتمع بين هذين التيارين. في طول الطريق الإسلامي هناك خطان، خط للفلاسفة، وآخر للمتكلمين، وهذا الأمر ينطبق على الشيعة والسنّة.

• طالما نتكلّم عن خطين، لا بد من أن يكون أحدهما أصيلاً، فمن الذي يمتلك

الأصالة؟

■ لا شك أن الكلام هو الذي يمتلك الأصالة؛ لأن الفلسفة متوارثة من غير المسلمين؛ فالمباني الفلسفية متوارثة من عند اليونانيين. واليونانيون ليسوا موحدين، وعندما ننظر إلى الشذرات المتبقية من سocrates وغيره نرى أنها تتكلّم عن آلهة، وليس عن إله واحد. وحتى أن ما أشيّع عن عناصر توحيدية في فكرة العقول العشرة اخترعت من قبل اليونان من أجل إيران التي كانت تتبّنى التوحيد. وتتحدّث المصادر أن أرسطو كان في حاشية الإسكندر، وعندما أراد الأخير أن يفتح إيران طلب من أرسطو أن يختلق ديناً يتلاءم مع بنية الدين الفارسي، فاستفاد أرسطو واليونان من الدين السائد لديهم ووجود الآلهة العشرة، فحوّلوها إلى عقول عشرة تحت عنابة الله، الحاصل أن مسألة الفلسفة عقيدة متوارثة من غير المسلمين بينما الكلام علم متولد من متن.

• هذا الإنكار لأصالة مدرسة صدراً لا يتناقض مع ما قام به من عملية مزج بين الإسلام والمدارس السائدة ومحاولة ايجاد علاقة بين الفلسفة والكلام الإلهي؟

■ مسألة الفلسفة والدين مسألة جد معقدة؛ لأن الإنسان عليه أن يتّبعه إلى الهدف منها؛ لأن البعض يقول الفلسفة يجب أن تتبع الدين، بينما يقول البعض الآخر بضرورة تبعية الدين للفلسفة، نصير الدين الطوسي والميرداماد اعتبرا الفلسفة تابعة للدين، تكفلوا بإثتّدال على العقائد الإسلامية الصحيحة، بمقدّمات فلسفية، ولكن صدر الدين أراد أن يستتبع الدين للفلسفة، فتعيّد بالمسائل الفلسفية أكثر من تعبيده بالمسائل الدينية.

• تتكلمون عن الفلسفة، كأنها أمرٌ من الماضي، ولكن نلاحظ أن الحكمة المتعالية، ما زالت فاعلة وناشطة، وتتجذب إليها الكثير من المثقفين؟

■ الفلسفة كانت مبنية على مسلمات، وفي العصور الحديثة أخذت تتهاافت نتيجة التطور العلمي والمنهجي، والآن تعالج كل قضية فلسفية ونرى كيفية تهافتها، وهذه الأمور التي ذكرها لكم الآن هي جزء من الحوارات التي أجريتها مع العلامة الطباطبائي، والشهيد مرتضى مطهرى، وجوايدى آملى. في السابق كانوا يقولون: الفلسفة أمّ العلوم، فكل العلوم داخلها، البعض منها علمي، والبعض عملي، وكل منهما يقسم إلى أقسام؛ فالكيمياء والفيزياء وكل العلوم داخلها، وكان لكل علم مسلماته التي لا يطالها الشك، فهي يقينيات أساسية، فأسسهم في العلوم الطبيعية العناصر الأربعة، ويسمونها البساط الأربع، فالعالم الطبيعي يمكن أن يقسم إلى هذه الأقسام (التراب، الماء، النار، الهواء) وهذا من الأمور الأساسية، لكن العلم أثبت أنه ليس أي من هذه العناصر بسيطاً، وحتى كتب الأطفال لم تعد تتحدث عن هذه الأمور، حيث حلّت فكرة الدرة وكيفية انقسامها.

وإذا نظرنا إلى الطب القديم، نراه يقوم على الأخلاط الأربع، وهذه الأمور لم تعد موجودة الآن.

والهيئة القديمة كانت مجرد أفلال شبيهة بقشور البصل والآن هذه النظرية لا قيمة لها.

ثم إن كيفية جعل العالم وخلقه، كان له قوانين على ما ذكره في الأفلال، إذ أنهم يقولون أول ما صدر عن الله العقل الأول، ثم العقل الثاني، مع الفلك الأول...
الحاصل أن الفلسفة على قسمين: الأول بحثه الفلسفة الغربية وأبطلته، فديكارت بحث الوجود على مقدار فرائ خلاف ابن سينا الذي قال أن الأصل هو الماهية لا الوجود. ولكن يبقى أن هناك حقيقة أنهم بحثوا في كل مسألة من مسائل الفلسفة وأبطلوها، فهم بحثوا الطب وأبطلوه، وبحثوا في الهيئة وأبطلوها... كل العلوم التي وصل إليها البحث أبطلت.

أما القسم الثاني: وهو يتعلق بالقضايا التي لم يبحثها الغرب، يعني الوجود والعدم و... وكل الأمور التي ليس لها مورد عملي، فلو وصلت إليها الفلسفة الغربية لأبطلتها.

إذاً لم يبق للفلسفة إلا مورد واحد وهو الميتافيزيقا، وهي في هذه النقطة لا يمكن تصديقها؛ لأن الذي يكذب في كل القضايا هل يمكن أن يكون صادقاً في نقطة معينة، بالإضافة إلى ذلك، فإذا قلت لك هناك شيء في قعر الأوقیانوس، وتحدثت عنه هل تستطيع أن تتيقن صدقه؟!

فالفلسفة انهزمت، وانهزمت، وانهزمت وفي هذه اللحظة التي ظهرت فيها معالم الهزيمة، خرجت علينا لتقول هذه الأمور الصغيرة ليست من شأننا، فنحن نهتم بما وراء الطبيعة وما وراء الطبيعة، لم يبحثه الغربيون، ولو بحثوه لثبتوا قصورهم فيه أيضاً.

وبعد هذا، هل يمكن أن نثق بهذه المعطيات؟ على كل حال، إذا نظرنا إلى الفلسفة الجديدة في الغرب، نلاحظ أنها مبنية على منهجية كلامية، وهي تتفق في عرض الموضوعات على العقل الذي يقبلها أو يرفضها، وكل الجديد في الفلسفة الجديدة الآلات والوسائل الإيضاحية، فهي لم تترك المجال للخيال فحسب، أو الذهنيات، إنما مزجت بين الذهنيات والواقعيات، وهذه هي طريقة المتكلمين.

● إذا كان لدى الكلام هذه القدرة والحيوية والقوة، لماذا ضعف الاهتمام بهاليوم؟

وهل هناك دراسات كلامية جادة؟

■ استغناء الشيعة عن الكلام، أدى لترابع الكلام منذ ٢٠٠ سنة لكن مع بداية العصور الحالية، وافتتاح العالم على بعضه البعض، وما تعرض له الإسلام من هجمات طالت عقائده تحركت الحوزة العلمية وبشكل كبير للتوسيع بهذا العلم. واعتقد أن في هذا القرن بدأ ظهور علم الكلام وبشكل أقوى مما كان عليه؛ ففي مسائل الإمامية ظهرت آراء جديدة، وكذلك في التوحيد والتبوية والعدل، حتى الفلسفية عندنا قد أصبحوا أكثر ميلاً نحو المتكلمين؛ فالشيخ المصباح ٥٠٪ متكلم، و٥٠٪ فيلسوف، وكذلك السبحاني، الآن بدأ الفلسفه بالتحول إلى متكلمين.

• هل تغيرت موضوعات الكلام الإسلامي في الزمن الحالي؟

■ نعم، فالصراع والتفاعل يؤثران على المعطيات الفكرية للمتكلمين، فالفلسفة الغربية تردد الكلام بأشياء هامة جداً. وأستطيع أن أقول: إنها تفید الكلام ١٠٠ مرة أكثر من الفلسفة التقليدية، الفلسفة الجديدة، تفید الشيعة بشكل كبير. ففي أحد الأيام كنت أطالع كتاباً يتحدث عن الروح لكاتب غير مسلم، وذلك من خلال التجربة، فلفت نظري قول الكاتب بأن الروح لديها القدرة على أن تضع لنفسها قالباً وتدخل فيه، ثم قال: إن الروح تستطيع أن تبني قوالب متعددة، وليس قالباً واحداً. وهذه القوالب ليست جسمانية، ولو أن لها شكل الجسد فهي قوالب مثالية، فإذا نظرت إلى زيد ترى عشرين زيداً واقفاً، وفي كل هذه القوالب يعمل عمله. لما رأيت هذا انتقلت إلى مسألة ليست من ضرورات المذهب ولكنها فكرة لطيفة، تقول إحدى الروايات أن الإمام عليه السلام كان في الأربعين مورداً، حيث جاء سلمان وقال أمير المؤمنين كان عندنا افتر لدينا، فرد عليه أبو ذر كان عندنا... ٣٩ قالوا أن الإمام كان عندنا، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «كان عندنا» فرد عليهم جبريل فقال: لا كان عند الله ولم يكن أحد منهم كادباً. ولكن ما رأيته في الكتاب الخارجي يقرب الفكرة وهذا يوضح قول الشيخ المفيد كيف يمكن أن أمير المؤمنين يحضر إلى كل الذين يموتون لعله من بعيد يشرف عليهم، ولكن لو صحّ ما ذكره هذا العالم لوجدنا حلّاً لهذه المسألة.

المقصود أن الفلسفة الغربية أنسع للإسلام من الفلسفة القديمة. فالفلسفة الالحادية الغربية تفیدنا، فالإسلام دين فطري ومعنى الفطري هو كهذا المثال البسيط الذي سأورده لكم: عندما تذهب وتشتري ثلاثة تحصل معها على كتيب فيه كيفية الاستعمال، وبالتالي الدين هو هذا الكتيب، هل يمكن أن لا يوافق الكتيب الثلاثة؟ وكذلك العقل الفطري، فالفلسفة القديمة كانت داخلة في متاهة بعيدة عن الواقعية، بينما الفلسفة الجديدة تدخل في متن الواقعية، بحسب التجربة والحس، والمفروض أن دين الإسلام مطابق للواقع. فالعلم الذي تكون مباحثه مبنية على الواقع ينطبق مع الإسلام أكثر من العلم الذي يعتمد على الذهن؛ ولهذا فالفلسفة الغربية أكثر ملائمة

لنا، فما تتوصل إليه المعارف الغربية، قد لا تكون متطابقة مع الدين ولكن من الممكن أن نستخدمها في إطار ديني ونستفيد منها.

• إلى أي مدى تنتظرون بإيجابية للمدارس الكلامية السائدة اليوم؟

■ أنا لا أقبل الكثير من مدّعي الكلام الجديد، ولكن هناك مدرسة كلامية ناشئة يشرف عليها الشيخ المصباح، فيها من هم أعمق بكثير من الشخصيات المعروفة لديكم كالشبيستري وغيره، وهم يعملون أعمالاً قيمة، ويعتمدون في بعض أبحاثهم على الفلسفة الغربية الحديثة ويقومون بترجمتها، والبعض قد تخطى الشهيد مرتضى مطهرى.

• ما هو منهج وغاية ومجال الكلام الجديد؟

■ الكلام الجديد طريقته هي الاستفادة من المعاني الفلسفية الموجودة في الغرب واستنتاج الآراء الدينية منه، وعليه أن يتتبّع أن مورد الاستفادة ليس الآراء الدينية، إنما النتائج العلمية المستخرجة من الكيمياء والفيزياء والطبيعيات وغيرها ثم أن تبني على هذه النتائج مسائل اعتقادية على نحو يقيني، بحيث إن كل من ينظر إلى المقدمات يستطيع أن يتبيّن صحتها، وهنا لا بد من أن نعيد التجديد بأن الأساس في علم الكلام ومنه الجديد هو عدم الاعتماد على الأمور الذهنية، بل أن على المتكلّم أن يخرج إلى الواقع ويرى المسائل، ويعرضها على العقل دون المسلمات الجامدة للفلسفة التقليدية المأخوذة من الغير، وهكذا يصبح المتكلّم يفهم مسألة، ويتقدّم إلى أخرى بعد استيعابها.

• هل الموضوعات المتعلقة بهذا العلم هي نفسها المتعلقة بموضوعات الكلام القديم؟

■ لا، الموضوعات أكثر افتتاحاً على الموضوعات، فقد طرحت مسائل جديدة وهي بحاجة إلى أدلة جديدة، إلى أمس لم يكن موضوع الاستنساخ مطروحاً على الكلام، واليوم هذه المسألة أصبحت ضرورية، ويمكن أن نستنتج قاعدة توحيدية، ونستدل منها على توحيد الله، حيث جعل كل جزء من جسم الإنسان قادراً على انتاج إنسان وخلاف ذلك.

• الكلام الجديد يستفيد من الآراء غير الدينية لإثبات آراء دينية. لكن هل من الممكن الاستفادة من الآراء غير الدينية؟

■ من الآراء العلمية نستطيع أن نحقق الفائدة، ولكن من الآراء الدينية «لا»؛ لأنه ليس لديهم ما يمكن أن نستفيد منه، وهذا غير نابع عن تعصّب؛ لأن البحث عن الدين بعنوان علمي هو جزء من الإسلام بينما لا يوجد دين يشتمل على أمور علمية ك الإسلام. وهذا يظهر في الموضوعات والتفريعات التي نجدها في العلوم الدينية عند المسلمين، فعندما تنظر إلى الكتب الفقهية والتشريعية لن تجد كتاباً موسعاً كتاب الجوهر، ولن تجد عندهم كتاب حديث كبحار الأنوار.

طبعاً إذا وجد الاختلاط بين الشرق والغرب، نلاحظ أن البعض قد بدأ يأخذ من الغرب دون دراية، وهذا نابع من عقدة دونية، ونحن لا نوافق عليه؛ لأن هذا سينتج إسلامات إسلام أمريكي، وأخر إنكليزي، وغيره. وهذا الأمر يفقد الإسلام فرادته.